الحكيم الترمذي

عارف من القرن الثالث الهجري

بارنت رادكه (١)

شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان جماعةً من المفكرين المسلمين حاولوا تشكيل تجربتهم الروحية في منظوماتٍ نفسيةٍ وكلامية وفلكية. كان من هؤلاء الجُنيد بن محمد، وأبو سعيد الخرّاز، وأبو بكر الواسطي، وكان منهم المحدّث والفقيه محمد بن علي الترمذي العارف المُلقّب بالحكيم.

خلّف الترمذي لنفسه ترجمة – هي الترجمة الأولى الواسعة لمفكر مسلم فيما أعلم – تمكننا من التعرف على مجرى حياته بشكل يُطمأن إليه. يذكر الترمذي أنه قضى عشرين عاماً في دراسة الحديث والفقه ثم مضى إلى مكة لأداء فريضة الحج، وله من العمر ثمانٍ وعشرون سنة. وقد

(١) Bernd Radtke. دراسة قصيرة ألقيت في المؤتمر العشرين للمستشرقين الألمان الذي انعقد في «إرلانغن» بين ٣ و ٨ تشرين الأول ١٩٧٧. ترجمها إلى العربية الدكتور رضوان السيد المدرس بالجامعة اللبنانية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

دفعته تجربته الروحية خلال الرحلة — خصوصاً في مكة بالذات — إلى انتهاج الطريق العرفاني . وعندما عاد إلى وطنه أكبّ على أعمال الزهد والورع، وقضى أيامه مصلياً وقارئاً للقرآن ومتجولاً بين المقابر المهجورة والخرائب المحيطة بالمدينة . وذهب بحثُه عن إمام يقتدي به عبثاً ؛ لكنه وجد بعض ما أمّله في كتاب لأحمد بن عاصم الأنطاكي تلميذ المحاسبي (ـ ٢٤٣ هـ). تعلّم من الكتاب المذكور أشياء عن رياضة النفس ، ثم بدأ بتكوين حلقة من المريدين من حوله ؛ لكن الفقهاء والمحدثين لم يصبروا عليه طويلاً فبدؤوا يسعون به لدى السلطة الحاكمة ويتهمونه بالحديث عن حب الله بطريقة غير مألوفة وبادّعاء أنه نبيّ . واستدعاه أمير بلخ للتحقيق معه فاستطاع أن يبرىء نفسه مما نُسب إليه . لم تنل هذه الأحداث على أي حال من هدوئه الداخلي إذ تابع انقطاعه وتزهده وكانت الأحلام والرؤى هي التي تسدّد خطاه وتعطيه الثقة بصواب الطريق الذي اختاره لنفسه ، وبأن الله اختاره من بين الناس . وقد جاءت ترجمته لنفسه ، للأسف ، خالية من تحديد تاريخي لأحداث حياته باستثناء حالة واحدة . لكن الثابت أنه عاش إلى ما بعد ٨٨٣ م ، وأنه نيّف على الخامسة والستين . ويفيد تحليل كل ما بين أيدينا من أخبار في كتب التراجم المتأخرة أن الترمذي توفي سنة ٩٠٠ م. أما العام ٨٩٨ م الذي يتكرر ذكره في المراجع تاريخاً لوفاته فلا سند له في المصادر التي نعرفها .

معلوماتنا عن مؤلفات الترمذي أدق من معلوماتنا عن حياته ؛ ففؤاد سزكين يذكر في مصنفه « تاريخ التراث العربي »(١) ما لا يقل عن ثمانين

(١) Geschichte des Arabischen Schrifttuns I, 653 Fb.

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

كتاباً من كتب الترمذي ؛ هذا فضلاً على مجموعة جوتنجن رقم ٢٥٦ التي تحتوي على عدة مؤلفات معروفة ورسائل كثيرة جديدة ؛ وهي مما لم يعرف بوجوده سزكين . صحيح أن بعض ما ذكره سزكين ليس دقيقاً ؛ لكن الباقي بعد التصحيح والشطب وافر حقاً . وعلى سبيل المثال فإن رسالة « المسائل الغضة » التي يذكرها سزكين بوصفها عملاً مستقلاً هي في الحقيقة جزء من كتابه « الأكياس والمغترين » ، ورسالته بعنوان « غور الأمور » هي غالباً الكتاب نفسه الذي يرد باسم « الأعضاء والنفس » . ومع أن وفرة مصنفات الترمذي أمر يبعث على السرور إلا أن الوفرة هذه لم تقلل من الصعوبات التي تقف في طريق فهم عالمه الفكري . وهو يكرر نفسه غالباً ويستطرد وينسى موضوعه الأصلي ، ونادراً ما يعالج موضوعاً بشكل منطقي ومنظم حتى النهاية . أما مصطلحاته فهي غير ثابتة ؛ وربما كان ممتعاً بالنسبة لدارسي الإيرانيات أن يعلموا أن مصنفات الترمذي كانت مصدراً مبكراً للترجمات الكلامية والصوفية من العربية إلى الفارسية .

هناك حتى الآن نشرات وطبعات عديدة لكتب من كتب الترمذي بيد أنها جميعاً لا تستند إلى الأسس العلمية النقدية للتحقيق . وأُعِدُّ الآن لنشرة جديدة من كتاب « ختم الأولياء » الذي كان عنوانه الأصلي غالباً « سيرة الأولياء » ، كما أنني أخطط لنشر عدة من آثار الترمذي .

لا بد قبل البدء بعرض الخطوط الكبرى لمنظومة الترمذي الفكرية من التنبيه إلى أنني لن أعرض لمصادر عرفانه وبيئتها هنا ؛ سواء كانت تلك المصادر إسلامية أو أجنبية . ولكي يكون فهم عالمه الفكري ممكناً لا بدّ من الإلمام بمفهومه الانتروبولوجي عن الانسان . يتضمن هذا المفهوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net
مجمع اللغة العربية

باختصار تقسيماً لمصادر الطاقة الإنسانية إلى قسمين اثنين : النفس والقلب . أما مكان النفس فهو فيما تحت السرة ، وتحكمه سبع خصائص أخلاقية سيئة أعظمها سوءاً الشهوة ومصدر الشهوة هو الهوى المنبعث من الجحيم ، يتغلغل في الإنسان عن طريق الشيطان . إن الغريزة الحاكمة — أو كما يسميها الترمذي « الجوهر » — تشدّ الإنسان إلى الجحيم ، ويعني ذلك أنها تدفعه للقيام بأعمال تؤدي به إلى جهنم . والنفس الغريزية هذه لا تدرك العالم إدراكاً مباشراً ملتذاً ، بل يجوز أن تصل إلى أغراضها الشهوانية هذه بواسطة أداةٍ تستخدمها لذلك . هذه الأداةُ هي الذهنُ الذي مكانُه الصدر .

أما المصدر الثاني للقوة الإنسانية فيكمن في القلب . والقلب هنا هو مكان المعرفة . وأريد هنا أن أحدد المعرفة المقصودة مبدئياً بأنها « الإدراك الفطري لله » أو كما اقترح هلموت ريتر « العرفان السابق لله » . وهي لا تعني عند الترمذي تعرّفاً فاعلاً بل معرفة ممتلكة .

لكن ، ما هو مضمون هذه المعرفة ؟

لكي تمكن الإجابة على هذا التساؤل لا بدّ من عرض موجز لمفهوم الترمذي العقيدي ، فالترمذي يُفرّقُ — كما هو معهود عند آخرين — بين الله وصفاته . إنه يسمي الذات الإلهية في كتاباته بالباطن والهوية . أما الصفات فيشير إليها بشكل عام بالظاهر . صفات الله هذه الصادرة عنه ، بطريقة تركها الترمذي غامضة ، تتجمع حول ذاته في شكل مجالات نورانية . وبفضل من الله ورحمة يتلقى كل إنسان جزئيات من نورانية الصفات المبثوثة في مجالاتها النورانية . هذا النور الفطري هو الذي يجعل كل إنسان يدرك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالفطرة أن الله موجود . المعرفة الأولية هذه يسميها الترمذي معرفة الفطرة أو الجبلّة ، وهي تحدث في النفس قدرة على التدبّر والتبصّر يدعوها الترمذي « بصيرة » أخذاً من الآية القرآنية الكريمة : « كلا بل الإنسان على نفسه بصيرة » . بهذه البصيرة يستطيع الإنسان أن يدرك آثار فعل الله في العالم الخارجي المدرك .

لكن ؛ كيف يمكن تعليل الواقع المشاهد الذي يُظهر أن هناك مؤمنين وكفاراً رغم أن الإنسان يعرف بفطرته وجود الله ؟ . ويجيب الترمذي على ذلك بأن الانسان لا ينكر في الحقيقة وجود الله إلا إذا لم تكن طبيعته أو فطرته سليمة ؛ لكن المسلم وحده يتحقق تماماً أن الله واحد ؛ ويعني هذا أن المسلم يمتلك نوعاً أعلى من المعرفة ؛ تلك التي يسميها الترمذي معرفة التوحيد ، المعرفة الفطرية بوحدانية الله .

إن الإدراك العرفاني يعني بالنسبة للترمذي أن يحوّل الإنسان معرفته الفطرية بوجود الله إلى معرفة واعية . وهو يصف النهج الذي ينبغي اتخاذه للوصول إلى ذلك على النحو التالي : إن نور المعرفة المنبعث من القلب يضيء حنايا الصدر . وهنا يصل النور إلى مركز الإدراك الداخلي ؛ الفؤاد. عند هذا يتدخل الإدراك العقلي (العقل) مضافاً إلى الفؤاد ؛ والعقل الذي يتدخل مركزه في الرأس . وتدخّله يكون بإضاءته لمضامين المعرفة من خلال خاصته الخاصة به وهي التمييز . والعقل هذا يمتلكه المسلم فقط في حين يظل الذهن شائعاً في الناس جميعاً .

عملية الإدراك هذه التي يصحبها التمييز تتم بشكل تدريجي . هذه العملية هي عند الترمذي سريان المجالات النورانية لصفات الله ، لكن ليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

بمعنى أن العارف يصعد ليرى الله أو ليتّحد به . إن الترمذي ، شأنه في ذلك شأن العارفين القدامى ، لايعرف بعدُ تلك التصورات التي تستبق رؤية الله يوم القيامة برؤية معواجية حياتيـة . ويعني هذا أن النور الإلهي الفطري لن يرى في هذا العـالم معاينة ، بل بعين الفؤاد وتمييز العقل . إن أعلى الدرجات التي يبلغها العارف هي درجة الإدراك الواعي للوحدانية والإدراك الواعي للفردية ، وبعبارة أخرى فإن المعرفة الواعية بالله ممكنة من جانب العقل المميّز . أما ما وراء ذلك فلا يستطيع العقل أن يدركه . إن إدراك ذات الله ليس متاحاً للعقل .

خلال عملية المعرفة تتدخل النفس محاولةً إعاقةَ ذلك . إنها تتدخل آتيةً مما تحت السُّرة صاعدة في اتجاه الصدر فتثير ضباباً في الفؤاد وتعطل عملَ العقل ، وتمنع الإنسان بذلك من إدراك الله بعين فؤاده . لذا فإن واجب العارف أن يبطل التأثير السيء للنفس . إن عليه أن يواجهها في عملية كفاح روحي . الوسيلة الأولية لذلك هي الانصراف إلى أعمال زهدية . وليس معنى ذلك أن تصـــوّف القرن الثالث وقف عند الطرق البدائية للزُّهاد القدماء . لقد صارت النظرة أحدّ ، كما ساد اعتقادٌ مؤداه أن الزهد لا يعني الكثير إن لم يكن موجهاً من الداخل . لقـد حاولوا أن يواجهوا النفس مباشرة ؛ فيتصدوا لخبثها وحبائلها ورغباتها المستورة حتى أعمق أعماقها بالتحذير والمحاسبة تارة وبمحاولة تحريرها من صفاتها السيئة تارة أخرى . هذه الطريقة الملحة في التربية الذاتية وضع أسسَها وطبّقها المحاسبي. وقد أدّت الخبرة الذاتية وطرائق تربية النفس هذه إلى نشأة ما يسمى بعلم الباطن الذي وضعه هؤلاء في مواجهة علوم الحديث والفقه التقليدية ؛ تلك

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

العلوم التي سموْها علوم الظاهر . ويسمي الترمذي علماء الباطن : حكماء . إنه يصفهم على النحو التالي : « والحكماء عن تدبير الله ينطقون (؟) كيف دبّر شأن الآدميين وكيف ركّبهم .. ويصفون تركيب أجسامهم ، ومكامن العدوّ منها وسلطان الشهوات فيها ، ويميزون بين عمل القلوب وعمل النفوس ، وخدع النفس وخُدَع العدوّ ، فإن للنفس وسواساً تَدِقّ في جنبه وساوس العدو .. ويصفون طريق أهل الإرادة ، ويعرّفون المريدين مكامنَ النفس لإنشاد العطايا الواردة على السالكين لذلك الطريق إلى الله ، وينقلون المريدين إلى درجات العطايا قولاً وهداية ؛ فإن التقوى في هذا الطريق أصعب وأدق وأغمض .. » (١) .

والصدق عند الترمذي هو أبرز جوانب السعي في مجاهدة النفس . ويكاد يكون العارف الوحيد الذي وقف ضد السعي للوصول إلى منزلة الصدق ! إنه يلاحظ في هذا المجال أن مجاهدة النفس سعياً للوصول إلى الصدق تشكل انشغالاً بها لا يؤدي إلى إضعافها بل إلى تقويتها . وهو يصف هذه العملية بهذه الكلمات : « ... لأن النفس تتبجح وتتزين للخلق به وتباهي الأشكال من العمال ... » (٢) .

إن السالك يعيش أحياناً خلال انشغاله التام بمجاهدة النفس عطايا ربانية تعطيه إحساساً بالراحة والانبساط . لكن يبقى هناك خطر كامن . إن النفس التي تدعمت خلال الصراع معها ، والتي ما تزال مملوءة بالهوى والجشع ، يمكن أن تنقضّ على ثمرات هذه العطايا لتلهي السالك عن هدفه

(١) الأكياس والمغترين (مخ إسماعيل صائب بأنقرة / ١٥٧١) ق ١٢٥ أ

(٢) مخطوطة لايبزغ رقم ٢١٣ / ق ٩ ب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأول الذي هو الله . في مثل هذه الحالة على السالك أن يدرك عبثية سعيه نحو الصدق ، وأن يوقف كل مساعيه وإحساساته في هذا الاتجاه ؛ حتى تلك التي تتصل بمساعيه للوصول إلى الله . إن عليه أن يعود لإنزال نفسه في منزلة انعدام الحيلة والاضطرار ؛ لأنه عند ذلك وعند ذلك فقط تنزل رحمة الله . وبرحمة الله وفضله يبلغ السالك ما لم يستطع أن يبلغه بمجاهداته من أجل الصدق : يبلغ منزلة طمس النفس . عندها تتابع عملية الإدراك سيرها في طريقها الصحيح : طريق التحول إلى معرفة واعية دون التأثيرات الضارة للنفس .

وقد حاول الترمذي إثارة اهتمام معاصريه بنقده للنهج الذي يسعى إلى منزلة الصدق . وقد تبادل الرسائل مع أبي عثمان الحيري (ت ٩١٠م) بنيسابور ، ومع محمد بن الفضل البلخي (ت ٩٣١ م) ، ويبدو أن البلخي هذا غادر بلخ إلى سمرقند بسبب مجادلات كلامية . أما الحيري فقد كان تلميذاً لأبي حفص الحدّاد (ت ٨٨٠ م) الذي حاول للمرة الأولى ، مستنداً إلى علم الباطن ، رسم منهج تربوي للمريدين . وكان البلخي صديقاً للحيري وأحد المعجبين بطريقته . يكتب الترمذي إلى الحيري : « .. ورد عليّ كتابك يا أخي ، وكتابٌ بعد كتاب ؛ وولّدْتَ فيّ ذكر عيوب النفس في باب المعرفة ؛ فإن قدرت يا أخي ألاّ تشتغل بذكر العيوب — وكل هذا سوى الله تعالى فافعل ! فإن لله تعالى عباداً عرفوه معرفة .. واتقوا من ذكر النفس .. » (١) .

---

(١) مخطوطة إسماعيل صائب بأنقرة ١٥٧١ / ق ٦١ ب

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويتفق الترمذي في نقده للحيري مع أبي بكر الواسطي (ت ٩٣٢م) الذي كان يعتبر طريقة الحيري فيا يتصل بالتركيز على نواحي ضعف النفس شيركاً .

ولنعد مرة ثانية إلى القلب الإنساني . إن عملية « حضور » المعرفة الفطرية لله في القلب تحدث عند أفراد الناس بدرجات متفاوتة عمقاً .هذا العمق يختلف من إنسان إلى آخر باختلاف قدر المعرفة المعطاة له في عالم الذرّ . والترمذي يقسم العمق المتحقق إلى ثلاث درجات : أدنى هذه الدرجات مقدار الإيمان الذي يشيع في أعماق عامة المسلمين . ويدخل ضمن نطاق هذه الدرجة المحدثون والفقهاء والمتكلمون . إن مداركهم مكتسبة من خلال حواسهم الظاهرة ؛ وعقولهم المشدودة إلى نفوسهم الأمّارة ؛ ذلك أنهم بحكم الطبيعة الدنيا المعطاة لهم يستطيعون فقط امتلاك معارف محدودة القيمة والمضامين . هذا التقييم لطبيعة معارف هؤلاء لا ينبغي أن يدفع السالك إلى إهمالها ؛ ذلك أنها تحدد له الطريق الصحيح لسلوكه الظاهر .

ويبلغ الحضور والعمق درجة عالية عند جماعة الحكماء . لكنهم رغم ذلك لا يصلون إلى وعي النور المحض مباشرة ؛ ذلك أنهم لا يستطيعون التخلص تماماً من إسار النفس . علماء الباطن هؤلاء الذين يسميهم الترمذي حكماء كانوا يدعون في القرن التاسع الميلادي صوفية .

وهنا يثار تساؤل : لماذا يسميهم الترمذي إذن حكماء ولا يسميهم صوفية ؟! والجواب بإيجاز :

١ - كلمة صوفي واشتقاقاتها مثل تصوف ، متصوفة ، صوفية ؛ لا تظهر في كتابات الترمذي على الإطلاق .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ — ربما لم تكن هذه الكلمة قد شاعت عندما كتب الترمذي أعماله . وهنا لا بد أن نلاحظ أنه يتعذر ترتيب مؤلفاته تاريخياً . والأمر الجدير بالذكر أن كثيراً من عارفي القرن الثالث الهجري ممن جاؤوا من شرقي العالم الإسلامي ؛ ممن سمّوا في المصادر المتأخرة صوفية - كانوا في حياتهم يحملون لقب حكيم ، من هؤلاء على سبيل المثال صديق الترمذي يحيى بن معاذ الرازي ، وأبو بكر الورّاق البلخي ؛ الذي جعلته المصادر اللاحقة تلميذاً للترمذي ، ومحمد بن الفضل البلخي الذي تبادل الترمذي معه الرسائل .

٣ — هناك احتمالات أخرى لا يتسع المجال هنا لمناقشتها بالتفصيل .

فربما كان هؤلاء الحكماء جماعة خاصة إلى جانب المتصوفين ولم يكونوا منهم . وربما كانت كلمة حكيم استعمالاً خاصاً بشرقي العالم الاسلامي ؛ لأن كلمة صوفي لم تكن شائعة هناك إذ ذاك ، أو لأنهم أرادوا اجتنابها لسبب من الأسباب . وفي هذه الحالة فإن السؤال الذي يعرض هو : كيف يمكن فهم كلمة الحكيم كلقب للترمذي استناداً إلى ما سبق ؟ هذا التساؤل أيضاً لا تسهل الإجابة عليه في هذه العجالة . إن جعفراً الخلدي الذي جمع كثيراً من كتابات الصوفية لا يعتبر الترمذي واحداً منهم . ولا بأس هنا أن نذكر أن الترمذي حمل على السماع والرقص اللذين كانا معروفين في أوساط الصوفية آنذاك ؛ بيد أن هذا لا ينهض دليلاً على عدم انتمائه إليهم لأن صوفية آخرين فعلوا الشيء نفسه .

يضع الترمذي فوق الحكماء طائفة ثالثة هي طائفة العارفين الحقيقيين الذين يسميهم هو العلماء بالله . إن التغذية الداخلية لهؤلاء لا يحرزها العالم

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية

الخارجي كما لا تؤثر فيها وساوس النفس . إنهم لا يرون أمام أعينهم غير الله . لقد انتهت الأنا عندهم ؛ وفي مكانها حلّ الله . معرفتهم تفوق كيفاً معارف الطائفتين بخاصيّة مميزة هي اليقين . واليقين هذا ليس أمراً يمكن أن يكتسبه الانسان بمجاهداته الخاصة ، بل هو نور يقذفه الله في الصدر مباشرة ، ويمكن أن يعرض للانسان كلمح البرق . إناسٌ كهؤلاء يحظَوْن بنعم الله وعطاياه . إنهم يتلقون حديثاً ، ويطلعون على أسرار الكون ، ويعرفون الإنسان الشقي أو السعيد ، وهم ذوو بصيرة نفاذة ولهم كرامات . هؤلاء أيضاً ينقسمون إلى فئات عُليا ودنيا بدورهم . أعلاهم جميعاً الأولياء ، ولا شك أن الترمذي اعتبر نفسه ذاك الوليّ المصطفى من الله .

بارنت رادكه

شبكة الألوكة
www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
الجمهورية العربية السورية مجمع اللغة العربية